الأسس المنهجية النقدية

بين الموازنة الأمدية والوساطة الجرجانية

الدكتور/ عبد الله حسين علي سليمان

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد

بسم الله الرحمن الرحيـــــم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله المبعوث رحمة للعالميـــــن ... وبعد

فهذه دراسة أدبية نقدية موازنة بين قطبين كبيرين ورائدين شهيرين من أقطاب النقد الادبـــى ورواده في فترة مزدهرة من فترات حياتنـــــا العربية المفعمـــة بالنشاط الفكري والأدبي ... نتعرف من خلالها على أدق السمات النقدية المنهجية لدى كل منهما ، في إطار عملين جليلين لهمـــا، وأثرين خالدين من آثارهما ، وهما " الموازنة بين الطائيين أبي تمـــام والبحتري " للآمـــدي .. و " الوساطة بين المتنبي وخصومه " للقاضـــي الجرجانـــي ... ومن الحقائق المؤكدة أن هذين الأثرين الجليلين درتان لامعتان متألقتان في جبين النقد العربي ،جادت بها خصومتان مـــن أعنف الخصومات الأدبية شهدها القرن الرابع الهجري وحده .. أولاهمـــا الخصومة حول أبي تمام والبحتري كما سجلها الآمدي في " الموازنـــة والأخرى الخصومة حول المتنبي كما سجلها القاضي الجرجاني في "الوساطة".

ومن الحقائق المؤكدة كذلك أنه بمثل هذه الدراسات المتفهمـــة الواعية يتم الكشف عن جوهر تراثنا العربي ، وسلامة أصوله ومصـــادره وخصوبة نتاجـــه ،وفيض عطائه ،وقوة تأثيره ،وعظمة اللغة التي وسعتـــه وأحاطت بـــه ، واستوعبت كل فنونه وأغراضه ، وسجلت أدق ماوصل إليه العقل الإنساني من أفكار وآراء ونظريـــات ...

وهذا هو الخط الذي التزمنا به ،وسرنا على نهجه ،وعاهدنـــا

الله ربنـــا على ان نكون فى رباط عليه إلى أن يرث الله ـ سبحانـــه ـ الأرض ومن عليهـــا .....

وعلى الله قصد السبيل ، ومنه نستمد العـــون ، وعليه نتوكـــل ، وهو حسبنا ونعم الوكيـــل .....

د/ عبد الله حسين على سليمـــان

الآمـــــــدي

أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي الأصل ،البصري المولد والمنشأ ... كان لنشأته في البصرة ـ وهي ملتقى العلماء والأدباء والـــرواة والمفكرين ـ أثر بالغ في تفتح مواهبه وطموحه وتطلعه الى آفاق أرحب فتوجه إلى بغداد وسعى إلى مجالس العلماء يتلقى عنهم اللغة والنحـو والأدب والشعر وكان حسن الفهم ، ثاقب الفكر ،جيد الرواية والدراية ، واســـع الاطـــلاع ، بارع الاستيعاب ،مما هيأ له مكانـــة مرموقة وشهرة واسعـة في العلم والأدب .

وقد كان لظهور الآمدي في القرن الرابع الهجري آثار بعيدة المدى في تكييف شخصيته العلمية والأدبية ،فمن المعلوم أن هذا القرن قد شهد امتداد الدولة الإسلامية ،واتساع رقعتها ،وازدهار حضارتها واطـــزلد تقدمها في شتى المجالات ،وارتقاء علومها ومعارفها ،وآدابها وفنونهـــا وتنوع ثقافاتها وامتزاجها بثقافات الأمم الاخرى ... وفي إطار هذا الازدهار كان الآمدي ناضج الفكر ،راجح العقل ، واسع الثقافة ،غزير المعرفـــة رحب الأفق ، صائب النظر ،متفتح الذهن ذا نزعة تجديدية واضحـــة ، وحاسة فنيـــة موهوبة ، وانطلاقة أدبية رائدة وطبيعة إبداعية مواتيـــة وبصر بالشعر نافـــذ ، واقتدار على النقد والتحليل بارع .

يقول عنه ياقـــوت[1]: " أبو القاسم صاحب كتاب "الموازنة بيـــن الطائيين ... كان حسن الفهم ،جيد الدراية والرواية ، سريع الإدراك

---

(١) معجـــم الأدباء جـ٣ ص ٥٤ الى ص ٦١ .

له شعر حسن ،واتساع تام فى الأدب ، ودراية وحفظ وكتب مصنفة ...وكان عالما فاضـــلا لايجاري ... لقد كان الآمدي بحق ابن عصره وبيئته عـــاش عصره وعايش بيئتـــه وتلقى عن العلماء والشيوخ ،وأخذ منهم ،وارتبـــط بالتراث وتفهمه ووعاه وجال فى مداره وتحرك فى إطاره باحثا جادا ، ودارسا مجتهدا ،وعالما مجددا له رأيه ومنهجه وفكره وذوقه ،وأسلوبه وطريقتـــه وقد يصيب وقد يخطئ لكنه فى النهاية مجتهد بارع ودارس واع،وباحـــث مدقق ، وعالم نشيط ، وناقد فذ ، وأديب موهـــوب .

وقد ألف الآمدي كتبا كثيرة فى اللغة والأدب والنقد كان من أهمها وأشهرها وأجلها شأنا وأتمها نفعا كتاب" **الموازنة بين الطائيين أبـــى تمام والبحتري** " **الذي** يعد بإقرار سائر النقاد من أمهات كتب النقـــد الأدبى وأصوله المعتمدة وأسس الموازنة بين الشعـــراء .

كانت وفاة أبى القاسم الحسن بن بشر الآمدي عام ٣٧٠ هـ وفى قول آخر عام ٣٧١هـ وهو مايذكره ياقـــوت فى معجمه .

القاضي الجرجانـــــــــى

أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى الشافعى العالم الفقيـــه الأديب الشاعر الناقد ، حسنة جرجان ، وفرد الزمان ، ونادرة الفلـــك وإنسان حدقة العلم ، ودرة تاج الأدب ، وفارس عسكر الشعـــر .
هكذا يصفه الثعالبـــى فى يتيمتـــه ويعرف به .(١)

---

(١) يتيمـــــة الدهر للثعالبى جـ ٣ .

ولد بجرجان فى أوائل القرن الرابع الهجرى أو فى أخريات القرن الثالث (٢٩٠) هـ فكان له من عصره وبيئته ما هيأ له سبل العلم والثقافة و المعرفة و الفقه و الأدب و النقد و الشعر ، فقد شهدت بداية القرن الرابع الهجرى حركة نشطة واعية ، وتيارا صاعدا فى شتى مجالات العلوم والمعارف والآداب و الفنون ، ركب موجته علماء أعلام تركوا بصمات واضحة على كل ما تناولوه وألفوه وأبدعوه ، وهيأوا مجالا رحبا فسيحا لطلاب العلم و المعرفة وشداة الأدب و الفن .

أما عن بيئته " جرجان " فقد كانت مدينة عظيمة من أعمال " مازندران ببلاد فارس ، وكانت على عهده تموج بطلاب العلم و المعرفة باعتبارها موطنا من مواطن الثقافة الإسلامية الراشدة ، وبيئة حافلة باللغة و الأدب والمؤلفات و المصنفات ، وقد دفع به طموحه ، وقادته مواهبه إلى التنقل بين جرجان و بغداد والشام طلبا للعلم ، وتزودا من الثقافة المزدهرة فى شتى البيئات ، وفى كافة المجالات فكان بذلك كله عالما و فقيها ، وشاعرا وأديبا ، وناقدا أريبا ، وكاتبا بليغا ، و مؤلفا موهوبا .

وكان لصحبته وصلته بابن عبّاد أثر كبير فى علو شأنه ، ورفعة قدره وبلوغه أرقى المناصب ، إذ قلّده الصاحب قضاء جرجان ، ثم رفعة إلى منصب قاضى القضاة بالرى عاصمة ولاية ابن عباد . وظل فى منصبه إلى أن توفى عام ٣٩٢هـ على أرجح الأقوال .

يقول أحمد عارف الزين شارح كتابه " الوساطة بين المتنبى و خصومه " « ولا أقف موقف المطرى لنثر الجرجانى ، ولا أقول لك إنى لم أقرأ لمعاصريه منثورا أنقى من منثوره ديباجة ، وأفصح لغة ، وأمتن تركيبا ، ولو عددته

فى صف أكابر الكتاب من مشاهير الصدر الأول لما أغربت لأن كتابه "الوساطة" ينبيك (وماراء كمن سمعـــا) وحسبنا به شاهدا وكفـــى ... (١)

ويقول عنه الدكتور خفاجى "ولكن كتابه "الوساطة" يرشدنا إلـــى خصائص فنه الأدبى من دقة التعبير ،وتمثيل الأسلوب لثقافته الأدبية التـى ترتفع إلى ثقافة الخاصة من الأدباء فى عصره ،كما يتجلى فيها الجنوح إلـــى إيثار الألفاظ والصيغ الرقيقة ، والبعد عن ترف البيان المتكلف فى شتـــى صوره وألوانه البديعية ،وعدم إيثاره من السجع إلا ما ساوق الطبع ،واستدعاه المعنى ولذلك تردد أسلوبه بين السجع والازدواج والإرسال والتســـاوق بينه وبين طبعه وعقله الزاخر بشتى الفكر والآراء الدقيقة ... ثم أسلوبـــه كذلك صورة لاستقلاله الفكري وجنوحه إلى الحجاج .. (٢)

ويقول عنه الدكتور مندور : " ورجل تلك روحه ليس بغريب أن يصدر فى بحثـــه عن حذر العلماء ،وحرصهم على اليقين ،ونفورهم من كـــل تعميم وقصر أحكامهـــم على مايعرفونه معرفة يقينية .. وفى كتابه صفحات لايستطيع العلماء المعاصرون أن يكتبوا خيرا منها ... (٣) لقد كان القاضى الجرجانى بحق عالما فاضلا ، سمحا كريما ، مهذبا ، رقيقا ، معتـــزا بشخصيته وكرامته قدر اعتزازه بالمثل العليا ، والأخلاق الكريمة ،والمبادئ الفاضلـــة ، والقيم الخالدة .

---

(١) مقدمة الشارح لكتاب الوساطـــة ط : صبيح .
(٢) حكومة القاضى الجرجانى فى النقد الادبى "مع كتاب الوساطة" .
(٣) النقد المنهجـــى ص ٣٤٥ ومابعدهـــا .

الموازنـــــة للآمـــــــدي

كتاب " الموازنة بين الطائيين أبى تمام والبحتري"أحد تصانيـــــف العالم النقادة أبى القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي البصري وهـــو من أجل الكتب التى ظهرت فى النقد والموازنة بل هو باعتراف سائر النقـاد من أمهات كتب النقد الأدبى وأصوله المعتمدة إذ وضع فيه مؤلفه أساس نقـد الشعر والموازنة بين الشعراء . واستوى النقد على يديه نقدا منهجيا ملتزما بقواعد وأصول مقررة ابتدعها وسار عليها والتزم بها وطبقها بكفاءة واقتدار ـ وأثار فى إطارها جملة من القضايا النقدية لها أهميتها البالغة فى مجـــال الإبداع الفنى والتذوق الأدبى كما تناول فى إطارها كثيرا من مباحـــــث البلاغة العربية وعلم البيان وكلام الآمدي فى مقدمته يحمل فى طياته مفاتيح موازنته واتجاهاتها إذ يقول : "هذا ماحثثت ـ أدام الله لك العز والتأييد والتوفيق والتسديد ـ على تقديمه من الموازنة بين أبى تمام حبيب بن أوس الطائى وأبى عبادة الوليد بن عبيد الله البحتري فى شعريهما .

وقد رسمت من ذلك ما أرجو أن يكون الله عز وجل قد وهب فيـــــه السلامة وأحسن فى اعتماد الحق وتجنب الهوى المعونة منه برحمته ،ووجدت ـ أطال الله عمرك ـ أكثر من شاهدته ورأيته من رواة الأشعار المتأخريـــن يزعمون أن شعر أبى تمام حبيب بن أوس الطائى لايتعلق بجيده جيـــد أمثاله ،وردىه مطروح ومرذول ،فلهذا كان مختلفا لايتشابه ، وأن شعـــــر الوليد بن عبيد الله البحتري صحيح السبك ،حسن الديباج ،وليس فيـــه سفساف ولا ردى ولا مطروح ،ولهذا صار مستويا يشبه بعضه بعضا. ووجدتهم فاضلـــوا بينهما لغزارة شعريهما ،وكثرة جيدهما وبدائعهما ، ولـــم

يتفقوا على أيهما أشعر ،كما لم يتفقوا على أحد ممن وقع التفضيل بينهم من شعراء الجاهلية والإسلام والمتأخرين .. ولست أحب أن أطلق القول بأيهما أشعر عندي لتباين الناس في العلم واختلاف مذاهبهم في الشعر، ولا أرى لأحد أن يفعل ذلك فيستهدف لذم أحد الفريقين فإن كنت — أدام الله سلامتك — ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ،ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ ، وكثرة الماء والرونق ، فالبحتري أشعر عندك ضرورة وإن كنت تميل إلى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة لا تلوى على غير ذلك فأبو تمام عندك أشعر لا محالة ،فأما أنا فلست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر ، ولكني أقارن بين قصيدتين من شعرهما إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية ،وبين معنى ومعنى فأقول أيهما أشعر في تلك القصيدة وفي ذلك المعنى ، ثم احكم أنت حينئذ على جملة مالكل واحد منهما إذا أحطت علما بالجيد والردئ ..... وأنا أبتدئ بما سمعته من احتجاج كل فرقة من أصحاب هذين الشاعرين على الفرقة الأخرى عند تخاصمهم في تفضيل أحدهما على الآخر وماينعاه بعض على بعض لتتأمل ذلك وتزداد بصيرة وقوة في حكمك إن شئت أن تحكم ،واعتقادك فيما لعلك تعتقد احتجاج الخصمين به . (١)

هذه هي خطة الآمدي كما عرضها بنفسه في مقدمته وهذا هو نقده المنهجي كما يظهر من كلامه وكما طبقه في عرضه وشرحه وتحليله .

والكتاب مقسم إلى خمسة أقسام والقسم يطلق عليه الآمدي جزءا فالجزء الأول يورد فيه الآمدي آراء النقاد في شعر أبي تمام والبحتري ويستقصي

---

(١) الموازنة من ص ١٠ إلى ص١٢ ط الثانية السعادة ١٩٥٤ .

آراء المتعصبين لهذا أو ذاك ، ويطلق الحرية لكل فريق أن يحاور ويجادل وينتصر لرأيه ثم إنه بعد ذلك يحصى فى إفاضة سرقات أبى تمام الشعرية : ا وقع فى كتب الناس من هذه السرقات ، وما استنبطه هو منها . ونبه على ما أخذه من غيره فأحسن فى أخذه ، وما أخذه فقصر فيه ، وأشار ، على ما وقع فيه ابن أبى طاهر من خطأ حين خرّج سرقات أبى تمام فخلط الخاص من المعانى بالمشترك بين الناس مما لا يكون مثله مسروقا ، وحين نسب بعض معانيه إلى السرق و المعنيان مختلفان ... (١) .

و فى الجزء الثانى يذكر أخطاء أبى تمام فى المعانى والألفاظ والأساليب و فى الجزء الثالث يذكر قبيح استعارات أبى تمام ، ومستهجن جناسه و مستكره طباقه ، وماورد فى شعره من سوء النظم و تعقيد التركيب ووحشى الألفاظ مما خلا من بهاء الرونق وعذوبة النغم ، ومما حمل التعسف على ديباجته ، وظهرت فجاجة التصنع فى أعطافه ، ويذكر ما وقع فيه من كثرة الزحافات التى ضيعت موسيقى أوزانه الشعرية حتى قال فيه " دعبل " : إن كلامه بالخطب و الكلام المنثور أشبه منه بالشعر الموزون . (٢) .

و فى الجزء الرابع يحلل بإيجاز عيوب البحترى مكتفيا من ذلك ببيان بعض سرقاته ، مع نفى الكثير منها عنه ، بدعوى أن الاحتذاء كان فى معان عامية لا خاصية حتى ينسب إليه السرقة فيها ، ويذكر قليلا من أخطائه فى المعانى مزيفا بعضها ، وبيتا واحدا مما تعسف فيه النظم وعقد فيه التركيب قائلا إنه لا يعرف له سواه ، وقليلا مما جاء له من

---

(١) الموازنة ص ٩٥ وص ١٠٥ و ما بعدها .
(٢) الموازنة ص ٢٤٦ .

ردئ التجنيس ، أو من اضطراب الوزن واختلاله .

والجزء الخامس يوازن فيه بين الطائيين فى المعانى التى اتفق موضوعها فى شعرهما ، وهو يبدأ تلك الموازنة بكلمة يبين فيها صعوبة نقد الشعر وأن لهذا الميدان أبطاله ممن عنوا بكثرة النظر فى الشعر والارتياض فيه وطول الملابسة له مع الطبع والملكات المواتية ، وأنه يجب أن يكون إلى هؤلاء المرجع فى نقد الشعر وصناعته .

على أن ياقوت فى معجمه يذكر أن الكتاب فى عشرة أجزاء [١] فأين ياترى الأجزاء الخمسة الباقية ؟؟؟

يرى بعض الباحثين أن الأجزاء الأربعة الأولى معروفة لدينا على وجه نظنه ثابتا .. وأما بعد هذه الأجزاء فالأمر مضطرب ... لأن الجزء الخامس كان فى خطة المؤلف الأصلية ذكر محاسن الشاعرين بعد أن فرغ من ذكر مساوئهما لكنه عند التنفيذ لم يجد مايقوله بعد أن استنفد خصوم الشاعرين فى المحاجة ذكر ما لكل منهما من فضل ولهذا أخذ المؤلف فى ملء هذا الجزء بالحديث عن النقد عامة كما يراه هو ، وكما يراه اليونانيون والهنود مردفا ذلك ببعض عبارات عامة مختصرة عن فضل أبى تمام وفضل البحتري [٢] . أما الجزء السادس فقد تناول فيه الآمدي معانى "هل" و"قد" وفى الجزء السابع رد الآمدي على "القطر بلى" فى كتابه عن أغلاط أبى تمام وخطئه والآمدي نفسه يعتبر هذا الرد جزءا من الموازنة يدخل فى محاسن أبى تمام [٣] . وفى الجزء الثامن تأتى الموازنة التفصيلية .. وفى الجزء التاسع باب التشبيه وهو مفقود

---

(١) معجم الأدباء جـ٨ ص ٨٧ .

(٢) محمد مندور : النقد المنهجى عند العرب ص ١٥٢ ومابعدها ، ط نهضة مصر ١٩٤٨ .

(٣) الموازنة ص ١١٦ .

و فى الجزء العاشر باب الأمثال و هومفقود كذلك .

و يرى الدكتور مندور أن هذا التقسيم إلى أجزاء إن كان غير محكم ولا واضح لأنه لا يستند إلى أساس حتى ولا من عدد الورقات فإنه برغم ذلك يتضح لنا منهج المؤلف فى بناء كتابه بناء محكما ، و أما مسألة الأجزاء فمسألة شكلية لا تؤثر على سياق الحديث فى شىء (١) .

يرى الدكتور خفاجى أن " الموازنة ألفت فى فترات متقطعة و دليله على ذلك عدم تساوق كل جزء من أجزائها فى التأليف مع الذى يليه ، وأن روح الآمدى مختلفة فى ثناياه ، ثم إنه يكرر كثيرا من آرائه و نقده . و أن شخصية الآمدى العلمية لم تستطع جعل " الموازنة " وحدة تأليفية بارزة فى روحها وتناولها الموضوعى لكنه يعتذر عن الآمدى بقوله " لقد جاء على ذلك أغلب التآليف العربية فلا داعى للوم الآمدى وحده ، (٢) .

و الحقيقة التى لاجدال فيها أن للآمدى روحه العلمية المتميزة السارية فى كيانه ، والبادية فى تصانيفه و مؤلفاته ، والواضحة أشد الوضوح فى موازنته التى تجلى فيها تمكنه من مادته و إلمامه بموضوعه ، وإحاطته بدقائقه وأسراره و دقة تناوله وتفرده فى طريقة ترتيبه و تبويبه وعرضه لمسائله ، و ميله إلى تأكيد أفكاره و خواطره و تقريرها و التعليل لها والاستطراد إلى ذكر أصولها و فروعها ، وتوخى أسباب الإقناع بها بذكر شواهدها و نظائرها وأشباهها ، تلك سمة من سمات درسه و بحثه تؤكد هذه الروح الحيوية الناضجة و الشخصية العلمية المتفتحة و السمت المنهجى الواعى ، و النقد الموضوعى اليقظ ، و الفكر الحريص الحذر .

---

(١) النقد المنهجى عند العرب ص ١٥٤

(٢) الحياة الأدبية فى العصر العباسى ص ٣٥٧ و ما بعدها .

ثم إن الآمدي يتناول الخصومة حول أبى تمام والبحتري تناول الناقد الحصيف الذي يرقب التيارات المتدافعة ويتنبه لما يتخلل هذه الخصومات من أفكار قيمة ، وآراء سديدة فيسجلها ،والأهم من ذلك أنه أبرز فى كتابه صورة أطرف من ذلك بكثير إذ نقل إلينا الخصومة كما جرت بين المتخاصمين متمثلة فى الرأي والرد عليه ،والحكم ودليله ،ونقضه والحجة عليه (١) .

وبذلك أتيح لنا من خلال تتبع هذه الخصومة التعرف على العناصر والأسس التى يرتكز عليها كل من المذهبين ومايتسم به كل منهما من محاسن وعيوب بينما يبدو الآمدي بعيدا عن الخصومة لا يفصل فيها ،ولا يدلى برأي حاسم فى هذا أو ذاك ،وإنما يحصر همه فى جمع عناصرها وعرضها ودرسها ،فإن حكم قصر حكمه على الجزئيات التى ينظر فيها فقد يكون البحتري أشعر فى باب من أبواب الشعر أو معنى من معانيه .وقد يكون أبو تمام أشعر فى ناحية أخرى وأما إطلاق الحكم وتفضيل أحدهما على الآخر جملة فهذا مايرفضه الآمدي .

وإذا كان المنهج الارسطى فى البحث يرتكز أساسا على الأحكام الكلية والانتقال من العام إلى الخاص ، فمعلوم أنه كانت للعرب محاولات خصبة لتعديل بعض الأسس فى هذا المنهج الأرسطى إذ كانت لهم عناية خاصة بالجزئيات والمفردات لينتقلوا بها من الخاص الجزئى إلى العام الكلى باكتمال الاستقراء وصحة الاستنباط ،كما أنهم اعتمدوا كذلك على التجربة والملاحظة فى إثبات الحقيقة بدون حاجة إلى حدود ومقولات وأقيسة . وعلى هذا جاء منهج الآمدي فى موازنته مرتبطا بالجزئيات التى

---

(١) من مقال للدكتور عز الدين إسماعيل بمجلة الأزهر العدد الخامس المجلد الرابع والعشرون ص ٦٢٠ .

يدرسها مرتكزا على مبدأ لا يسلّم فيه إلا بما هو حق ويقين لا يعتريه أى ضرب من ضروب الشك . كما جاء بناء كتابه بمنأى عن الاقتسار المنطقى الذى يفرض عليه حدودا وأقيسة قد تتأبّى على موضوعات بحثه ودرسه وتتنافى مع خطته و منهجه .

و موازنة الآمدى ليست مجرد عرض وتفصيل لخصومة أدبية محتدمة بين أنصار شاعرين كبيرين فحسب ، وإنما هى تصوير دقيق للتيارين الأدبيين اللذين كانا يتجاذبان اهتمام الناس منذ القرن الثالث الهجرى وحتى منتصف القرن الرابع تقريبا .

ولذلك كانت " الموازنة " بحق من أقرب المؤلفات النقدية إلى الروح العلمية وأجمعها لآراء النقاد ، وأحفلها بالرائع الممتع كما كانت مصدرا بالغ الأهمية من مصادر البيان العربى ، ومادة خصبة للذين كتبوا فى علوم البلاغة ، وذخيرة نفيسة للذين يدرسون النقد و تاريخه . (١) .

ويفهم من كلام الآمدى فى مقدمته لموازنته أنه لا يريد أن يحكم حكما كليا حاسما لصالح هذا أو ذاك ، وأنه لا يريد أن يتعصب أو ينحاز إلى جانب دون آخر لمجرد الميل الخاص و الهوى المتبع ، وإنما يريد فى موازنته أن يعتمد على الحجة والبينة و الدليل والبرهان وحكم العقل والعلم والذوق المتمرس ، وهذا لا يتأتّى إلا فى إطار ما يدرسه من الجزئيات ، والموازنات الموضوعية و القضايا المحددة ثم إنه فى النهاية لا يفصح عن رأيه وتفضيله لأحد الشاعرين على الآخر تفضيلا مطلقا ، وإنما يترك ذلك لقارئه بعد أن يكون قد قدم له عناصر الجودة والإبداع ، وأحاطه علما بمظاهر الضعف والقصور ، وجمع له أطراف الموازنة فيما يعرض له من

(١) دكتور عبد الغنى إسماعيل من مقال له بمجلة الأزهر حـ١٠ مجلد ٢٠٤ ص ١٢١٨

تفاصيل وهذا منهج علمى سديد يتسم بالدقة والحيطة والحذر ورفض التعميم وإطلاق الأحكام بغير بينة وبرهان ، ولذلك فأنت تراه يلتزم بهذا المنهج القويم يدرس ما أمامه موردا حججه معللا أحكامه قاصرا لها على التفاصيل التى ينظر فيها رافضا إطلاق الأحكام .

ولكى تكون أحكامه سليمة صحيحة فى الجزئيات التى يدرسها والتفاصيل التى يعرض لها والنصوص التى يتناولها نراه يعتمد على التحقق والتثبت من سلامة النص واستقامته ، وصحة نسبته وهذه مرحلة متقدمة فى النقد المنهجى المستقيم تأمل قوله وهو بصدد بيت لأبى تمام هذا نصه :

دارٌ أُجِلُّ الهوى عن أن أُلِمَّ بها : فى الركب إلا وعينى من منائحها

وهذا لفظ محال عن وجهه لأن "إلا" هنا تحقيق وإيجاب ، فكيف يجوز أن تكون عينه من منائحها إذ لم يلم بها ؟ وانما وجه الكلام "دار أجل الهوى عن أن ألم بها وليس عينى من منائحها "وقد كنت أظن أن أباتمام على هذا نظم الشعر ، وأن غلطا وقع عليه فى نقل البيت حتى رجعت إلى النسخة العتيقة التى لم تقع فى يد الصولى وأضرابه فوجدت البيت فى غير نسخة مثبتا على هذا الخطأ . (١)

وفى موضع آخر يقول " وقد جاء فى شعر البحترى بيت هو عندى أقبح من كل ماعيب فيه أبو تمام فى هذا الباب وهو قوله :

(ولماذا تتبّع النفس شيئا جعل الله الفرد وِتْرَ منه سَواءً) وكذلك وجدته فى أكثر النسخ وهذا خارج عن الوزن ... وقد رأيت فى بعض النسخ "جعل الله الخلد منه بواء .. فإن يكن هكذا قال فقد تخلص من العيب. (٢)

---

(١) الموازنة ص ١٧٦ .

(٢) الموازنة ص ٤٣٢ ومابعدها .

وبالعلم والمعرفة والتحقق والتثبت والدراية والدربة والإحاطة بأقوال السابقين والرواية عنهم والتذوق الخاص ومجانبة الهوى تحققت للآمدي في موازنته هذه السمات النقدية المرتكزة على أصول فنية منهجية وأسس موضوعية وعناصر إبداعية نلمسها بوضوح في ذلك الجزء الذي يتحدث فيه عن موازنته بين معاني الشاعرين والمفاضلة بينهما في كل معنى على حدة وذكر المحاسن والبدائع لكل منهما مع بيان العلل والحجج التي يمكن أن يتوصل إليها ويحيط بها علما ، ويمكنه التعبير عنها وبيان حقيقتها ، أما ما لا سبيل إلى بيانه وإظهاره من الأمور التي تدرك بالخبرة والتجربة والممارسة والإحساس المبني على التأمل والعلم فذلك أمره موكول إلى الفطنة والذوق ورهافة الإحساس ودقة الشعور وطول المعايشة ووفرة الخبرة والممارسة مما من شأنه أن يؤدي إلى العلم ثم إلى الإنصاف . ولن ينتفع بالنظر إلا من يحسن أن يتأمل ، ومن إذا تأمل علم ، ومن إذا علم أنصف ، وهؤلاء هم أهل العلم بالشعر والمعرفة بأغراضه ومراميه وإدراك أسراره وأبعاد معانيه ، وهم الذين تقبل منهم الأحكام ولا ينازعهم منازع فيما يقولون إلا إذا كان نظيرهم في هذه الصناعة بالخبرة والدربة وطول الممارسة . ولا يستطيع أهل هذه الصناعة أن يقدموا لك كل ما يعلمونه عن صناعتهم بحيث تصير في مثل علمهم لأن ذلك أمر لابد فيه من طول الزمان ومرور الأيام لاكتساب الخبرة والذوق وعمق الإدراك . (١)

ولعل هذا الكلام يذكرنا بالمنهج الذاتي التأثري الذي يعتمد القائلون به على التأثيرات الوجدانية للنص الأدبي واستجابة المتلقي لهذه التأثيرات مع بيانه لمواطن الروعة والإبداع في هذه الآثار الأدبية من وحي هذه الاستجابة دون التمسك بقواعد خاصة لقياس الآثار الأدبية فالقواعد ليست في حقيقتها إلا انطباعات وإحساسات فردية تجمدت بمرور الزمن ، ومن الواجب أن يتخلص

(١) الموازنة من ص ٣٤٣ إلى ص ٣٤٨ .

منها الباحث والناقد جميعا ، ويقتضى هذا المنهج الذاتى التأثـــــرى مزيد تأمل فى الآثار الأدبية وحسن تذوقها والتعرف على مدى إحساسنـا وانفعالنا بها ومايستوجبه ذلك من ضرورة الارتقاء بالذوق الأدبـــــى وتنميته عن طريق الخبرة والممارسة والتعمق فى دراسة النصوص والآثـــار الأدبية فى عصور مختلفة و فنون متعددة و الوقوف على كل ما قيل فيهـــا و ذكر بشأنها ليكون للناقد الأدبى مدد واسع و سند قوى للتذوق الواعـى الأصيل و الحكم الراشد السديد .

ويذكر الآمدى بعد ذلك مقياسا للتعرف على الدراية بهذه الصناعـــة أو الجهل بها ، وقد حدد هذا المقياس بالنظر فيما أجمع عليه العلمـــاء بالشعر من تفضيل بعض الشعراء على بعض ، فإن أدرك العلة وفقه أسباب التفضيل ، وتعرف على موجبات الاستحسان كان قد علم وإلا فقد جهل وهو بذلك يعول على الأحكام المتعارف عليها من جماعة النقاد وأهل البصر بالشعر والتعليل لها و معرفة أسبابها و الحجج التى اعتمدوا عليها .. فهل يا ترى يسمح الآمدى لناقد متمرس له الخبرة و الدراية بالشعـــــر أن يعيد النظر فى شعر امرىء القيس و لبيد وأوس بن حجر ويخرج على الناس برأى جديد يخالف ما ارتآه القدامى من العلماء والنقاد ؟؟؟

أعتقد أن الآمدى متأثر تماما بآراء النقاد قبله فهو يرتكز على أفكارهـــم ويردد أقوالهم ، ويستدل بحكومتهم فى النقد ، وهو يروى الكثير عنهم فى كل صفحة من صفحات كتابه وكل موضوع من موضوعاته ، فقد نقل عن الأصمعى وابن الأعرابى وأبى عمرو بن العلاء ، كما نقل عن ابن قتيبة و المبرد وغيرهم من أئمـــة الأدب و علماء اللغة . نقل عن هؤلاء و غيرهم ما يظهر أثره ويتردد صداه فى موازنته ، وفضل الآمدى يتجلى فى تدوين هذه الآراء وتنسيقها وإضافة أقوال معاصريه إليها ، وتأييدها بكثير من أفكاره و نظراته الخاصة وتحليلاته

وتعليلاته وحججه وبراهينه مما جعل لكتابه قيمة كبرى إذ نجد فيه خلاصة كل ما ألف من النقد من قبل ،كما نجد منهجا للنقد متميزا بسماته وملامحه من الاقتدار على الاستقصاء والالتزام بالموضوعية وتجنب التعميمات والإعراض عن التعصب والهوى فى إصدار الحكم وغير ذلك من صفات جعلت الآمدي كما يذكر الدكتور مندور زعيم النقد العربى الذي لا يدافع . (١)

دعوى التعصب بين النفى والإثبات

مع ماكان للآمدي من روح علمى دقيق ، وسمت منهجى أصيل ،وفكر موضوعى ناضج ،وذوق نقدي رفيع ،وحس فنى صادق ،وتثبت حذر وتجنب للأحكام المطلقة ،وميل الى التحليل والتعليل ،واتكاء على الدليل والبرهان مع ذلك كله فقد ألقيت عليه تهمة التعصب للبحتري والتلطف فى محاسبته ومؤاخذته والتزفق به فى أمور كثيرة وانحياز واضح إلى جانب أنصاره وجماعته مع تشدد بالغ فى مواجهة ابى تمام وتحامل عليه واحتشاد ضده عسر فى محاسبته ومؤاخذته .

وقد انبرى الدكتور مندور لدفع هذه التهمة عن الآمدي ونفى هذا الادعاء بقوة وحزم إذ يقول : (٢) وبالرجوع إلى كتاب " الموازنة " نفسه نجد أن المؤلف لم يتعصب للبحتري كما لم يتعصب ضد أبى تمام ،وانما هذه تهمة اتهمه بها النقاد اللاحقون عندما فسد الذوق ،وغلبت الصنعة والتكلف على الأدب العربى ،ونظر هؤلاء الأدباء المتأخرون فى بعض انتقادات الآمدي لسخافات أبى تمام ووساوسه ولم يوافقوا على تلك الانتقادات لمرض أذواقهم فقالوا إن الرجل متعصب ضد أبى تمام ،وهذا ظلم يجب أن نصلحه والتهمة لا تقوم بعد على استقصاء لأقواله ،ولا تصدر عن نظر شامل فى كل ماقاله وإلا لرأوا أنه قد أعجب بأبى تمام فى غير موضع ودافع عنه أكثر من مرة .

---

(١) النقد المنهجى صـ ٩٦ ومابعدها . (٢) الموازنة من صـ ٣٤٣ إلى صـ ٣٤٨ .

كما أنه لم يحجم عن أن ينقد البحتري نقدا مرا كلما وجد فيه مغمزا ، وأن يفضل عليه أبا تمام وهذه وقائع يجب أن نظهرها لأنه لا يكفي لكي نتهم الآمدي بالتعصب أن نورد مثلا أو مثالين نخالفه فيهما ،ثم نستنتج أنه قد تعصب ضد أبي تمام أو تعصب للبحتري .. انتهى كلام الدكتور مندور .

والحقيقة التي لا مراء فيها أن الذوق الخاص،وظروف العصر وثقافته وآراء السابقين ،وطبيعة التراث العربي الموروث كلها أمور لها تأثيرها الفعال في الاتجاهات النقدية ،ومناصرة مذهب على مذهب أو ميل إلى شاعر دون شاعر على الرغم من الاحتكام إلى القواعد والأصول والأسس المقررة والنزاهة في التناول ، والدقة في إصدار الأحكام .

ولذلك كان الكلام عن تعصب الآمدي للبحتري ضد أبي تمام مثارا على مستوى النقاد والأدباء وأهل البصر بالشعر من قديم ولم يهدأ حتى الآن وليس الحكم في مثل هذه القضايا من السهولة بحيث يمكن دفعها هكذا بأيسر دليل .وقد أضفت شخصية أبي تمام باعتباره قمة شامخة من قمم الشاعرية الأصيلة بعدا خاصا على هذه القضية ،فلم يعد مقبولا على سبيل المثال أن توصم أشهر قصائده بالتزييف والرداءة والانتفاض وقد التفت ياقوت الى ذلك فقال وهو بصدد التعريف بكتاب "الموازنة "وهو كتاب حسن ،وإن كان قد عيب عليه في مواضع منه ونسبه إلى الميل مع البحتري فيما اورده ،والتعصب على أبي تمام فيما ذكره ،والناس بعد فيه على فرقتين فرقة قالت برأيه حسب رأيهم في البحتري وغلبة حبهم لشعره وطائفة أسرفت في التقبيح لتعصبه وانه جد واجتهد في طمس محاسن أبي تمام وتزيين مرذول البحتري ،ولعمري أن الأمر كذلك ،وحسبك أنه بلغ في كتابه إلى قول أبي تمام " أصم بك الناعي وإن كان أسمعا " .

فشرع في إقامة البراهين على تزييف هذا الجوهر الثمين ،ولو أنصف

وقال فى كل واحد بقدر فضائله لكان فى محاسن البحترى كفاية عن التعصب بالوضع من أبى تمام .... (١) .

كما التفت بعض الباحثين المعاصرين إلى ذلك كذلك فقال وهو بصدد سرد مآخذه على الموازنة (٢) : " إيثاره للبحترى ، وجنوحه إلى تقديمه وانتصاره له ، ويتجلى ذلك فى ثنايا كتابه فى مظاهر شتى ، فهو حينا يذهب إلى أن جيد البحتري أكثر من جيد أبى تمام وكلما أمعنت النظر فى ديوان البحترى تنبهت إلى كثير من جيده الذى غاب عنك قبل حسنه ، بينما لا تظفر إذا أمعنت النظر فى ديوان أبى تمام من جيد إلا بالقليل : " وهو حين ينقد البحترى يمسه برفق ، ويقف فى كثير من الأحيان موقف المدافع دونه ، أما إذا تعرض لأبى تمام قبض على أخطائه بيد لا تلين ، يزيف كثيرا من معانيه ، ويظهر مجافاتها للذوق العربى القديم ، ويبهرج كثيرا من أساليبه التى لا يسيغها النهج العربى القويم ، ثم هو يظهر نصرته للذين رأوا البلاغة سحر نظم ، وجمال سبك ، ويرى بعد ذلك أن الشاعر البحترى .

أما أبو تمام وأضرابه مثل المتنبى فهم حكماء ، وهو يدفع كثيرا من سرقات البحترى التى أخذها من أبى تمام ، وينكر أن تكون سرقة ، بحجة أن معانيها عامية لا خاصية ، ونحن لا يمكننا - ولو سلمنا بأن هذه معان عامية أن ننكر احتذاء البحترى الظاهر - فى هذه المثل وسواها مما يكثر تعداده - لأبى تمام ولا نستسيغ أن نقول إنه لم ينهل من المنهل الذى شرعه أبو تمام ولم يشرب من عبابه ، ولا أن نقول إنه لم يكن فى ذلك عيالا على أبى تمام وتابعا له ، ثم ما للآمدى - رضى الله عنه - لا يترك مؤاخذة أبى تمام على سرقاته فى المعانى العامية - كما فعل مع البحترى - مع أن أبا تمام فى كثير

---

(١) معجم الأدباء جـ ٨ ص ٨٧ وما بعدها
(٢) خفاجى : الحياة الأدبية فى العصر العباسى ص ٣٦١ وما بعدها .

مما أخذ يستبد بشرف المعنى لجودة نظمه وحسن تأتيه ، وارتفاعه بالزيادة على ما أخذه والتأنق فى صوغه ... ويقبل الآمدي ماوضعه "دعبل" على أبى تمام مع معرفته بحقيقة موقفه منه ، ومع ظهور تحامله عليه . ويحكم الآمدي فى النقد عاطفته الدينية تارة وعقله تارة أخرى تاركا ذوقه الأدبى يتأثر بهذه الحكومة الجائرة وعقله يفسد على ذوقه حكمه ، وعاطفته الدينية تصرفه عن شاعرية الرؤية .. ظهر ذلك فى نقده بيت أبى تمام .

(سأحمد نصرا ماحييت وإننى لأعلم أن قد جل نصر عن الحمد)

أخذ على الشاعر أنه رفع ممدوحه عن الحمد الذي ندب الله عباده إليه بأن يذكروه به وينسبوه إليه ... وظهر فى نقده البيت الذي يقول فيه أبو تمام :

(من حرقة أطلقتها فرقة أسرت قلبا ومن عذل فى نحوه غزل)

أخذ عليه الآمدي أن الفرقة لاتأسر القلب ، وإنما يأسره الشوق وهو بذلك ينكر أن الفرقة تدع القلب الوفى فى حبه أشد لوعة وأكثر هلعا من الشوق والحبيب حاضر والخليل مقيم وهل هناك أجدر من أن يقع القلب فى إسار الفراق وفى لظى الحزن وسعير النكرى ووثاق اليأس والرجاء ؟؟؟

وكما سبق أن قلت فإن مثل هذه التحامل الظاهر على أبى تمام مرجعه ثقافته الأدبية القديمة ، ونزعته العربية الخالصة ، وذوقه الخاص وآراء الأقدمين الذين سبقوه ، وطبيعة عصره ، ومواجهة معاصريه لمذاهب التجديد وأساليب الإبداع .. ذلك أن أبا تمام خرج على الناس بنوع جديد من الشعر أخرجه من رأسه لا من قلبه ، فهو يغوص على المعانى العقلية غوصا ثم يرفعها إلى السماء ويعمل فيها خياله البعيد ويختار لها الألفاظ ويعنى ببديعها وجناسها فتم له من معانيه العميقة إلى القاع وخياله المرتفع إلى السماء وألفاظه المتجانسة المزوقة نوع جديد من الشعر لم يسبق إليه ... (١)

ولذلك وصف بالعلم والحكمة فكان العالم والحكيم ، وقد غلب علمه

---

(١) تقديم أحمد أمين لكتاب اخبار ابى تمام "الصولى جـ ١ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

كما غلبت حكمته على عواطفه و مشاعره فكان من أولئك الشعراء القلائل الذين تتحول مشاعرهم و أحاسيسهم في نماذجهم إلى عقل و فكر ... خرج أبو تمام على الناس بلون جديد ، و شعر فريد فهمه البعض ، و لم يفهمه آخرون ، قالوا له : لم لا تقول من الشعر ما يفهم؟ و قال لهم : و لم لا تفهمون ما يقال ؟ (١) و تعصب بعضهم له و تعصب كثيرون عليه لكنه ظل شامخا كالطود ، متينا كالضخر ، و كانت الضجة عنيفة تثار ضده ، و الخصومة محتدمة حول شعره و فنه ...

وقال بعضهم : إنه ضل الطريق ، و خرج على عمود الشعر العربي و طريقته المتبعة ، و لم يلتفتوا إلى حقيقة كبيرة و هي أن أبا تمام قد جاء بمذهب جديد في الشعر العربي أولى بأن يستحسن لا أن يزرى عليه و يستهجن (٢) .

و في مثل هذه الظروف المشحونة بالتوتر و الجدل و الاحتدام يكون موقف الناقد صعبا عسيرا ، حتى و إن كان بمقدوره أن يفلت من إسار هذه المؤثرات المثيرات ، و يتحرر من ربقتها ، و يصدر أحكامه بعيدا عن تيارها و تأثيرها ... إذا فإن الأمر بحاجة إلى تفهم و تأمل ، و تروٍ و أناة قبل الاتهام بالتعصب و التحامل ، لأن مثل هذه الأمور لا تقبل على علاتها ، بل لابد فيها من المناقشة ، والأخذ و الرد ، و الاعتماد على الأدلة و البراهين ، و مراجعة كافة الآراء و الأقوال و على سبيل المثال أتساءل ماذا نقول فيما يقرره الآمدي عن البحتري و سرقاته الشعرية من أبي تمام بوجه خاص إذ يقول : (٣) .

---

(١) أخبار أبي تمام ص ٧٢

(٢) دراسات في الشعر العربي المعاصر لشوقي ضيف ص ٢٣١

(٣) الموازنة ص ٢٥٠

" بل استقصيت ما أخذه من أبى تمام خاصة إذ كان من أقبح المساوى أن يعتمد الشاعر ديوان رجل واحد من الشعراء فيأخذ من معانيه ما أخذه البحترى من أبى تمام و لو كان عشرة أبيات ، فكيف والذى أخذه منه يزيد على مائة بيت ... !!!

و من المسلم به أن مقاييس الجودة و الرداءة ترجع فى أصولها إلى قواعد دقيقة ، و ضوابط نقدية و بلاغية متفق عليها ، ولا يمكن أن تكون خاضعة بحال من الأحوال لمطلق الذوق الخاص ، و على ذلك فكثير مما اعتبره بعض النقاد غثا رديئا من شعر أبى تمام إنما هو فى حقيقة أمره جيد رائع خفيت عليهم و جوهه و أسراره ، و قد يكون الجيد من شعره فى نظر البعض هو فى الحقيقة لا يساوى شيئا ، و الشاعر لا يسقط قدره ولا تهبط منزلته ببعض من شعره حكم عليه بالرداءة و الغثاثة أو بالبعد و الإغراب ، فالشاعرية الأصيلة متعددة الجوانب ، متفاوتة الدرجات باعتبارات شتى .. و لقد روى عن أبى تمام قوله " مثل شعر الرجل عنده مثل أولاده فيهم الجميل و القبيح و الرشيد و الساقط و كلهم حلو فى نفسه فهو وإن أحب الفاضل لم يبغض الناقص، و إن هوى بقاء المتقدم ، لم يهو موت المتأخر .. (١) .

و أبو تمام شاعر له مذهبه و اتجاهه و منهجه الخاص و مدرسته المتميزة والبحترى - كذلك - شاعر له مذهبه و اتجاهه الخاص و طريقته و مدرسته و لكل مذهب خصائصه و سماته و لكل أستاذ رائد أتباعه و مريدوه و من حق أى إنسان أن يختار ما يهواه .. لكن ليس من حقه أن يطلق

---

(١) الاغانى حـ ١٥ ص ٢٢٨ و ما بعدها ط دار الفكر ببيروت .

أحكا ما وفق هواه ... لقد اتصل البحترى بأبى تمام و أعجب بطريقته و حذا حذوه فى البديع بطريقته الخاصة و أقرله بالفضل و اعترف بالأستاذية فحين قال له بعضهم : إن الناس يزعمون أنك أشعر من أبى تمام . كان جوابه " و الله ما ينفعنى هذا القول ، ولا يضر أبا تمام ، و الله ما أكلت الخبز إلا به ، و لوددت أن الأمر كما قالوا ، و لكننى و الله تابع له ، آخذ منه ، لائذ به ، نسيمى يركد عند هوائه ، و أرضى تنخفض عند سمائه[1]

كذلك كان موقف أبى تمام من البحترى فقد سمعه و أعجب به وشجعه و نصحه و أوصاه ، وكان لنصحه و توجيهه أثر عظيم فى تلميذه .....

و التزام البحترى بوصية أستاذه لا يعنى بالضرورة أن شعر الأستاذ وتلميذه من نمط واحد ومذهب خاص فإن هذه الوصية تمثل أبا تمام الأستاذ ولا تمثل أبا تمام الشاعر ... و البحترى لم تكن له مثل عقلية أبى تمام الواسعة ، و ثقافاته المتعددة ، و فلسفته العميقة ، و آفاقه الممتدة و لم تكن له مثل ميول أبى تمام فى الغوص على المعانى ، وإدراك شأوها على بعد مداها وامتداد آفاقها ... كذلك لم يكن لأبى تمام مثل رقة البحترى و عذوبة ألفاظه و حلاوة جرسه وسلاسة أسلوبه وجمال موسيقاه كما أنه لم ينتج له مثل حظ البحترى من السهولة و اليسر و غلبة الطبع و صفاء الفطرة ، و بذلك تكتمل حلقة الاختلاف بين الشاعرين و تبقى لأبى تمام مدرسته الخاصة و للبحترى مدرسة أخرى قد تلتقى مع المدرسة التمامية فى شىء لكنها تفارقها فى أشياء ....

و لعل ذلك ما دعا الآمدى إلى توقفه و رفضه أن يصدر حكما مطلقا ، لصالح أحد الشاعرين إذ أن لكل منهما طابعه و قدره و تأثيره و كل منهما أستاذ فى مدرسته ورائد لمذهبه ... وهذا ما قصدت أن أشير

---

(١) أغانى ساس جـ١٨ صـ ٣١٨ .

إليه و أنوّه به و أكشف عنه ، فالآمدى كان غاية فى الذكاء حين رفض إصدار حكم مطلق لصالح هذا الشاعر أو ذاك و هو يعلم أن مثل هذا الحكم فى مثل هذه الظروف أمر شاق عسير وعبء صعب كبير .

و أيا ما كان الأمر فإن للآمدى مكانته و منزلته و قدره و اقتداره فى مجال النقد الأدبى و الموازنات الفنية و التحليل الموضوعى البارع و النظرة الصائبة و الذوق الرفيع والاتكاء على أصول منهجية واضحة المعالم و السمات متألفة الملامح و القسمات . . . . .

و قد سار نقاد الشعر العربى بعد الآمدى على طريقته والتزموا بمنهجه ، و اقتفوا أثره فى تحكيم الذوق الأدبى و الروح العربى الأصيل و أصول البيان الموروث و أساليب الصناعة الشعرية العتيدة .

و من بين من تأثروا بالآمدى و موازنته القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى فى كتابه المشهور " الوساطة بين المتنبى و خصومه .

❊ الوساطة ❊

لقد شاهد القاضى الجرجانى آثار الخصومة الأدبية بين المتنبى و خصومه منذ بدايتها ، كما عاصر حملة الصاحب بن عباد على المتنبى فى كتابه " الكشف عن مساوىء المتنبى فى شعره " فرأى فى هذا الكتاب جورا على الحق و إسرافا فى الخصومة ، وشططا فى النقد ، ففكر و قدر ثم الف بعد حين كتابه " الوساطة " إنصافا للمتنبى ، و تقديرا له ، و عرضا لآرائه فى شعره ، و مناقشة لخصومه فيما وجهوه إلى شعره

من نقد لاذع وذم شنيع ، وتتبعهم فى أقوالهم كاشفا مافيها من تحامل وتجاوز للحق والإنصاف مبينا جوانب الإجادة والإحسان فى شعر المتنبى .

ويذكر الجرجانى المتعصبين للمتنبى والمتعصبين عليه ويؤكد عقوق الطائفتين له أو للأدب فيه ، ويوجب حق الاعتراف بالفضل لذويه ويعتذر عما يقع فيه الشعر من أخطاء ، فليس هناك من يسلم من الخطأ . لم يسلم منه شاعر جاهلى أو إسلامى ، وما احتجاج النحويين فى خطئهم إلا محض تكلف لا يستسيغه ذوق ، وإذا كان للشعر قوامه من الإحساس فيه مع الطبع والرواية والمران والذكاء فليس هناك مايمنع من تفاوت ملكات الشعراء وتباين منازلهم فيه .

ويسترسل القاضى الجرجانى فى بيان تأثير البيئة فى تلوين الشعر بألوان تختلف جزالة وفخامة وعذوبة ورقة ، ولذلك اتسم الشعر الجاهلى بالجزالة والفخامة ، كما اتسم شعر المحدثين بالرقة والعذوبة وهى رقة وعذوبة فرضتها الحضارة المزدهرة والحياة المترفة فلم يعد بوسع الشاعر منهم الظهور فى فنه بمظهر البداوة حتى لا يقع فى الإغراب والغرابة ومجافاة الطبع والذوق ... وهو يدعو المحدثين من الأدباء والشعراء إلى الرقة والعذوبة التى تسمو على الساقط السوقى وتنزل عن البدوي الوحشى من الأساليب ، كما يدعو إلى تنزيل الجزالة والرقة منازلهما بحسب المعانى والاغراض والموضوعات ويدعو كذلك الى الاسترسال مع الطبع وترك التكلف وهو فى هذا الإطار يشيد بشعر البحتري وطبعه الأدبى الساحر . ويذكر القاضى الجرجانى عيار المفاضلة بين الشعراء عند العرب فيقول : (١)

" وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء فى الجودة والحسن بشرف

---

(١) الوساطة ص ٢٧ ط صبيح .

المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظم القريض ...

ويعود الجرجانى إلى ذكر خصوم المتنبى فيبين أنهم قد افترقوا فرقتين فرقة تعاديه لأنها تعادى المحدثين كافة ، وأخرى تخاصمه وحده من بين كافة المحدثين فتضع من شأنه من حيث ترفع من شأن أبى نواس ومسلم وأبى تمام والبحترى وابن الرومى وأضرابهم .. وهو فى رده على الفرقة الأولى يشيد بشعر المحدثين ، ويثنى على صنعتهم وإبداعهم فى التعبير والتصوير وإتيانهم بالجديد من المعانى والأساليب

ويرى أن الفرقة الثانية هى التى تتمثل فيها الخصومة بلدادتها وعنفها وقسوتها ومجافاتها للحق والعدل والإنصاف .. ويحاول القاضى الجرجانى أن يفاضل بين المتنبى وغيره من المحدثين فنراه يشتط فى حكمه ويبالغ فى تحامله عليهم والا نتقاص من أقدارهم ولعله بذلك أراد أن يؤكد فضل المتنبى عليهم وسمو منزلته بالقياس إليهم أو على الأقل مساواته بهم واعتباره واحدا فى جملتهم ومعدودا فى طبقتهم ..

ويأخذ الجرجانى بعد ذلك فى عرض المآخذ التى أخذت على المتنبى من جانب خصومه ، ويذكر أدلتهم وحججهم ثم يأخذ فى مناقشتهم ويدعوهم إلى التؤدة والإنصاف ويلفت انتباههم إلى روائعه وإبداعاته طالبا منهم أن يحكموا أذواقهم وطبيعتهم فى تذوق شعر المتنبى ويأخذ فى الرد عليهم محاولا دفع حججهم بما يتراءى له من وجه الصواب والحق والإنصاف ، وقد يشاركهم آراءهم فيما يرمون به المتنبى من نقص وقدح بيد أنه يعتذر عنه بأن غيره من الشعراء وقع فى هذا العيب ولم يسلم منهم أحد فهو نظيرهم فى ذلك فلماذا يؤاخذ وحده ؟ !

نرى ذلك فى تناوله لاغاليط الشعراء وسرقاتهم ومبالغاتهم وتعقيداتهم وإسرافهم فى استهلاك المعانى .

بين الموازنة والوساطة

والجرجانى فى وساطته يسلك مسلك الآمدى فى موازنته إذ يقيسها على أساس الحوار بين أصحاب أبى تمام و أصحاب البحترى بيد أن حوار الجرجانى كان حوارا أدبيا يتجلى فيه ذوقه ووجدانه و طبيعته و سمات شخصيته .

أما حوار الآمدى فقد كان حوارا علميا يتجلى فيه عقله و اطلاعه و فكره وثقافته وذوقه الخاص و مسلكه المتميز فى إبراز وجوه الاستحسان والاستهجان برأى قاطع و حسم جرىء دون تعلل بأن الأخطاء شائعة و المآخذ مشتركة وأن جميع الشعراء لم يسلموا منها فمثل هذا التعلل لا يبرىء ساحة أبى الطيب و لا غيره من الشعراء .. طالما و قع ووقعوا فى هذه المآخذ و الأخطاء .

و حقيقة فإن نزعة القاضى الجرجانى فى وساطته هى نزعة القاضى العادل المنصف الذى أشرب طبعه و ذوقه و عقله حب العدالة و دقة الحكم و مدافعة الهوى ، و الأخذ بالأدلة و البراهين الموصلة إلى التثبت و اليقين مع أخذ الحيطة و الحذر و البعد عن التحيز و هذه سمات الروح العلمية بكل المقاييس ... إلا أن القاضى الجرجانى حين يحاول إنصاف الشاعر فى شأن خطأ أو عيب آخذه به خصومه لم يناقش هذا الخطأ ولم يدفع هذا العيب بل يقيسه بأشباهه و نظائره عند الشعراء المتقدمين ليقيم الحجة بأنهم أيضا لم يسلموا من هذا الخطأ أو ذاك العيب ... (١) كما نراه يورد عيوب المتنبى ثم يشفعها بذكر محاسنه لإسقاط العيوب فى

(١) النقد المنهجى ص ٢٤٩ و ما بعدها .

مقابلة المحاسن والروائع .. وفى هذا الصنيع اعتراف من الجرجانى بنهذه المآخذ والعيوب وكأن كل غايات الجرجانى فى وساطته كانت تنحصر فى رفع المتنبى إلى مستوى سواه من الشعراء وأن يشرك معه القدامى والمحدثين من الشعراء فى الخطأ والعيب ليلتمس له العذر بذلك فى هفواته وزلاته ويقرر الدكتور خفاجى أن ذلك دفاع يحمل فى طياته الضعف.. وهو حكومة عادلة جائرة لأنها تسجل على المتنبى العيب ثم ترفع عنه إصر المؤاخذة لأوهى الأسباب .. [١] ومن أجل ذلك كان لابن سنان الخفاجى رأى يدمغ حكومة القاضى الجرجانى ويصمها بالضعف والقصور. [٢] .

بل إن تحمسه للمتنبى دفعه إلى أن يشتط فى محاسبة غيره ليظفره بمنزلة مساوية لهم وليؤكد أنه لم يتجاوز بأخطائه وعيوبه قدر ما أوخذ بنه الآخرون كابن الرومى وأبى نواس وأبى تمام ،وهو فى ذلك لم يقصد إلى حيف أو جور بقدر ما دفعه اليه تحمسه واحساسه بالمتنبى .. وبقدر ما لم يسعفه ذوقه بمعرفة وجه الحق فيه وحسن تأويله بما يقتضيه فوقع بدوره فى المؤاخذة الجائرة التى لم يسلم منها أبو الطيب المتنبى كما لم يسلم منها سواه من الشعراء . يقول القاضى الجرجانى [٣] : فإن توسعت فى الدعاوى فضل توسع ،وملت مع الحيف بعض الميل حتى تناولت طائفة من المختار فجعلته فى المنفى وأخذت صدرا من الجيد فجعلته مع الردئ ولسنا ننازعك فى هذا الباب فهو باب يضيق مجال الحجة فيه ،ويصعب وصول البرهان إليه ،وإنما مداره على استشهاد القرائح الصافية والطبائع السليمة التى طالت ممارستها للشعر فحذقت نقده وأثبتت عياره وقويت على تمييزه ،وعرفت خلاصه ... والشعر لا يحبب إلى النفوس

(١) حكومة القاضى الجرجانى فى النقد الادبى ص ٣٣ .
(٢) سر الفصاحة ص ١٢١ ـ ص ١٢٧ .
(٣) الوساطة ص ٧٦ ومابعدها .

بالنظر و المحاجة ولا يخلى فى الصدور بالجدال و المقايسة ، و إنما يعطفها عليه القبول و الطلاوة ، و يقربه منها الرونق و الحلاوة ...

و من أمثلة ما لم يسعفه ذوقه بمعرفة وجه الحق فيه وحسن تأويله بما يقتضيه قوله فى بيت أبى الطيب :

ما بقومى شرفت بل شرفوا بى ... و بنفسى فخرت لا بجدودى

إنه هجاء صريح لأنه يقر بأنه لا شرف له بآبائه . و قد رأيت من يعتذر له فيزعم أنه أراد : ما شرفت فقط بآبائى أى لى مفاخر غير الأبوة و فىّ مناقب سوى الحسب ، وباب التأويل واسع ، و المقاصد مغيبة و إنما يستشهد بالظاهر ، و يتبع موقع اللفظ ..(١)

و نقول : لو أن القاضى الجرجانى تروّى و تأمل و تفهم و تدبر و كان على وعى تام ودراية عميقة بنفسية المتنبى و شخصيته و صراحته و جرأته و كبريائه و اعتداده بنفسه و زهوه بنها لأدرك على الفور عظمة هذا البيت و عرف سر روعته و عمق مغزاه ، و لما قال إنه هجاء صريح و لما احتاج فى شرحه إلى تأويل . و مثله قوله أبى الطيب :

و ضاقت الأرض حتى كاد هاربهم ..... إذا رأى غير شىء ظنه رجلا

فنرى القاضى الجرجانى يأخذ على المتنبى أنه جعل "غير شئ" مرئيا ولو أنه تروى كذلك لأدرك جمال المبالغة فى قوله " غير شئ " تصويرا بليغا للحالة النفسية للهارب .

و من مظاهر تأثر الجرجانى بالآمدى تفهمه لحقيقة النقد الأدبى وغايته و مناهجه وتحكيم الذوق العربى الأصيل ، و تناوله لنفس الموضوعات .

---

(١) الوساطة ص ٢٧٧ .

و القضايا التى تناولها الآمدى . و تشابه أحكامه الأدبية فيها مع كثير من أحكام الآمدى فى نفس القضايا و الموضوعات بل إن شرحه لبعض الأبيات يكاد يتفق مع شرح الآمدى لها ، وإن كان الجرجانى لا يشير إلى ذلك من قريب أو بعيد ، و لا يذكر للآمدى اسما ولا لقبا ولاكنية ولا يلمح من خلال سطور وساطته بما يدل على أنه قرأ الموازنة أو اطلع عليها أو سمع بها .. على أن موازنة الآمدي وهى السابقة للوساطة قد استوفت بحوثها النقدية بشرح - تحليلى مفصل مضى بها إلى غايتها و تمامها و كمالها و لم يتح ذلك للقاضى الجرجانى فلم يطل به نفسه للوصول بأبحاثه إلى غاياتها و تمامها و استقصاء فروعها و جزئياتها . بل انه لم يستوعب شعر المتنبى دراسة و بحثا و تفهما ولم يشر إلى خصائصه الفنية و سماته المميزة و إن كان فى قضية "السرقات الشعرية قد قطع فيها شوطا بعيدا و استوعب ما دار حولها من نقد .. و لعل الجرجانى نفسه يشير إلى ذلك إذ يقول : " ولو عرجنا على كل معترض ، وأصغينا لكل قائل لامتد بنا القول ولأعجزنا كثرة الخصم عن امتحان الشهادات ، و شغلنا باتصال الدعوى عن التوسط ، وانما يقصد بالكشف ما يشبه ، و يتوسط فى الأمر الذى يشكل و يلتبس و نصون كتابنا عن سخيف الاعتراض كما نصونه عن ضعيف الانفصال ..

و أمثال هذه الاعتراضات كثيرة و استقصاؤها جميعا باب من التطويل فأما كتابنا هذا فقد وفيناه حقه و بلغنا به نهايته وآتينا على ما وصلت الطاقة إليه و ما أسعفنا الإمكان به ، فإذا زادنا النظر و الفكر و المطالعة و البحث بعض ما يليق به أضفناه إليه و إن أفادنا غيرنا منه ما قصر علمنا عنه استفدناه و أعظمنا النعمة فيه و عرفنا لصاحبه فضل التقديم و لرجعنا له بحق التعليم .. (١).

---

(١) الوساطة ص ٣٢٦ ، ص ٣٥٦ و ما بعدها .

و من الأمور التى ينبغى أن نشير إليها فى منهج القاضى الجرجانى أنه لم يعتمد على إطار منسق محكم فى تنظيمه وتبويبه للموضوعات التى يتناولها و الأفكار التى يطرحها والقضايا التى يدرسها ... و هذه كلها بحاجة ماسة إلى ترتيب خاص يجمع شتاتها ، و ينظم أبوابها و فصولها ، و يحكم تناولها و عرضها موصولة بعنوان البحث وهو " الوساطة " بين المتنبى و خصومه فهذه الوساطة التى لا تكاد تنطبق إلا على القسم الثالث و الأخير من الكتاب الذى يتناول فيه القاضى الجرجانى ما عيب على أبى الطيب فى شعره ومآخذ العلماء عليه وردوده و مناقشاته و تحليلاته لهذه المآخذ .

و من جملة القضايا و الموضوعات التى تناولها الجرجانى فى وساطته، و تمثل السمات المنهجية فى نقده .

- الشاعرية الأصيلة و ارتباطها بروح الشاعر و نفسيته و طبعه و مزاجه الخاص و صلة الشاعر بعصره وبيئته و عاداته وتقاليده و نشأته .
- ووجوه التفاوت بين القدماء و المحدثين فى الشاعرية و ما يتصل بها من الصياغة و الأساليب وطرق الأداء و ألوان التصوير ووجوه البديع ورد ذلك التفاوت إلى بواعثه و أسبابه ، و تقدير الأعمال الأدبية باعتبار مالها من قيمة فنية بغض النظر عن كون صاحبها من القدامى أو المحدثين .
- و الخلق الفنى والمضى فيه مع الطبع و نبذ التكلف والتعقيد و المبالغة والإغراق والغموض فى الشعر .
- و الكشف عن حقيقة الجزالة والرقة وارتباطها بالمعانى والموضوعات .
- و تحليل السرقات الشعرية و بيان أنواعها ومنازلها من الوضوح والخفاء والدعوة إلى التأنى فى الاتهام بالسرقات الأدبية و التماس العذر للمحدثين لكون القدامى قد أحاطوا بكثير من المعانى والأفكار .

وعرض لأسلوب الالتفات وماينبغى فيه من الاعتدال والالتزام بمعاييـــر اللغة وقواعد الأداء لأن الإفراط فى استخدامه يؤدي إلى الالتباس.

وتناول فنى لضرورات الشعـر والحشو وسر الفصل بين الكلام .. ومـا إلى ذلك من موضوعـــات عرض لها ناقدنا على بن عبد العزيز الجرجانى فى ثنايا وساطته واستحق بها أن يكون ثانى اثنين ظهر علـــــى أيديهما النقد الفنى الموضوعى على أسس منهجية قويمة أحدهما الآمدي فى موازنتـــه وثانيهما الجرجانـــى فى وساطته .

والحمد لله أولا وآخرا وهو حسبنا ونعم الوكيل . ربنا عليـــــك توكلنا وإليك أنبنـــا وإليك المصيـــر .....

* دكتور / عبد الله حسين على سليمـــان *